المعرفة عند الإمام الغزالي

لقد كان الغزالي رحمه الله ـ واسع الإطلاع شديد النهم إلي المعرفة في كل علم ومن كل طريق وقد أثرت فيه البيئة أيمّا تأثير فلم يترك كتاباً يستطيع أن يصل إليه إلا قرأه أو مذهباً إلا حاول الاطلاع عليه ومعرفة أسراره ، ولا موضوعاً من موضوعات المعرفة إلا تناوله بالبحث والتحليل ولا مشكلة من المشاكل إلا وبذل فيها كل ما في وسعه لحلها حتي أنه لفرط ذلك كان يتعمق هذه المذاهب والأفكار ويتشربها ويعيش معها لعلها تكون الحق ولعل ذلك هو السبب في تبقي آثارات هذه الأفكار أو بعضها في نفسه كما حدث مع الفلسفة فكما قيل عنه إنه (دخل الفلسفة ليهدمها وما خرج منها) [1] والدافع إلي ذلك أنه كان دائم البحث عن اليقين والمعرفة ، فهو في سبيل المعرفة حاول الإطلاع علي جميع علوم عصره والإحاطة بها ، كما بحث الأديان والفرق ، والفلسفات التي كانت تشغل أذهان الناس يومئذ ، وحاول كشف أخطائها ، ولقد كانت الرغبة في هتك أستار العلوم ومعرفة أسرارها فطرة وجبلة فيه ، ويتضح ذلك من قوله (وقد كان التعطش إلي درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي) [2]

---

[1] ابن تيمية : (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) جـ١ ، صـ ٣٠٢ ـ القاهرة ١٣٢١هـ ، ١٩٠٣م .

د/ مصطفي حلمي (ابن تيمية والتصوف) صـ ٢٢١ دار الدعوة ، ط٢ ، عام ١٩٨٢م ـ الإسكندرية .

[2] الغزالي ـ المنقذ من الضلال ، صـ ٣٢٩ ، الإحياء ١٠/٥ .

ولكي نعرف الصلة بين المحبة والمعرفة عنده ، لابد أن نستوثق أولاً من مبحث المعرفة ومكانته عنده لأنه يري أن المحبة ثمرة من ثمار المعرفة إذ أن المعرفة هي البذر الذي يوضع في الأرض فينمو حتي يثمر المحبة (فمن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ؟ ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع ؟)[١] وقد تميز الغزالي بعقلية نافذة فذة تستطيع أن تحلل الأشياء منطقياً ليصل من المقدمات إلي نتائج صائبة ، ومعارف يقينية موثوق بها .

ولهذا فقد احتوت مؤلفاته الغزيرة علي أكثر العلوم والمعارف التي كانت سائدة في عصره ، وإن الجهد الذي بذله الإمام في البحث والتأليف وفي طلب المعارف إنما يدل علي تعطشه إلي الوصول إلي أقصي درجة من المعرفة ويذكرنا هذا بموقف الإمام الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) من العلوم أيضاً فقد كان نهماً للعلم كذلك حتى قال في وصيته عند موته (إعلموا أني كنت رجلاً محباً للعلم ، فكنت أكتب في كل شيء لأقف علي كميته وكيفيته سواء كان حقاً أو باطلاً) [٢] ومع أن الفارق بينهما يتضح من وراء معرفة ما تناولاه وما خرجا به من النتائج ومنها أن الغزالي كان يحتويه منهج الشك الملازم له باحثاً عن الحق دوماً والعالم حوله يموج بالأفكار المتصارعة والمذاهب المتقاتلة وحرصه علي إدراك الحق وتوصيله كان سبباً مباشراً في بساطة لغته وعدم التكلف فيها إلا من بعض الرموز التي يشير بها إلي أهلها ويضن بها علي غيرهم ــ وكانت لغتة بعيدة عن الإطناب والغموض ولقد صدق حين قال (فرب كلام يزيده الإطناب والتقرير غموضاً) [٣] بخلاف الرازي الذي أمعن في الإطناب والإغراق في التفريعات . وهذا ما دفع أحد الدارسين له إلي القول (والحق أنني كنت كلما عجزت عن متابعة الرازي في بعض المسائل أعود لأقرأ الغزالي في هذه المسائل نفسها التي تعقدت أمامي عند الرازي فينفتح أمامي ما استغلق عليّ عند الرازي ،

---

(١) الإحياء / جـ٤، صـ ٣١٣ .

(٢) السبكي ــ طبقات الشافعية ، جـ ٥، ــ صـ ٣٧ (تاج الدين السبكي)

(٣) الغزالي : إحياء علوم الدين ، جـ١ ، صـ ٩٧ .

وذلك في رأيي أهم ما يميز كتابة الغزالي عن الرازي ، فعند الغزالي نجد الوضوح والدقة وشخصية الغزالي السمحة المتواضعة ، أما عند الرازي فنجد الإطناب الشديد والتعقيد وشخصية الرازي المتحدية دائماً .[1]

وإذا كان الغزالي هو المدافع البارز عن التصوف السني ورافع قواعده وباني عمده فإن الحديث عن المعرفة عنده يستتبع النظر في أقوال من سبقوه وقد أكد هو والمتصوفة أن طريقتهم طريقة ذوق لذا فإن الحديث عن المعرفة حديث متشعب وذلك راجع إلي طبيعة كل صوفي فكلٌ يعبر عنها بتجربته الخاصة وكثيراً ما تتباين هذه التجارب وتختلف عندهم ، وذلك لأنها ليس لها ضابط إلا الوجدان والذوق ، ومنهج المعرفة عند الصوفية يمتاز في جملته عن مناهج الفلاسفة وعلماء الكلام والفقهاء لأن الصوفية عندما تحدثوا عن المعرفة جعلوا بها وسائل تدرك بها وشروطاً تتحقق بها وقد وصف الغزالي طبيعة المعرفة عند الصوفية وحقيقتها وصفاً دقيقاً يبين مدي تبحره في علومهم ومعرفة مادتهم حيث يقول (وكانوا ــ أي الصوفية ــ أكثر ميلاً إلي المعرفة الإلهامية الفيضية الذوقية ، ولم تكن طريقتهم قراءة الكتب ولا تحصيل العلوم بل كانت طريقتهم إليها تطهير القلب وتهذيب النفس وضبط الجوارح والاستغراق في الذكر ، والفكر والبعد عن الشواغل التي تصرف الإنسان عن التركيز الذهني ، والحضور النفسي بين يدي الله ، وعندما يقومون بذلك كله ، ويداومون عليه ، حتي يكون شيئاً معتاداً لهم وبفضل من الله ، إلي أن يكون أهلاً لما يلقي في قلوبهم من نفحات وإشراقات من العلم الذوقي اللدني)[2]

ومن هذا الكلام فهم أن المعرفة تتحقق للسالك بشرط تطهير القلب مما سوي الله تعالي والإقبال عليه بالعمل الجاد والاستغراق التام . فإذا حصلت

---

[1] د/ فتح الله خليف (فخر الدين الرازي) صـ ٢٢ ، دار الجامعات المصرية ، ١٩٧٧م .

[2] الغزالي ــ الإحياء ، جـ ٣ ، صـ ٢٥، ٢٦ .

المعرفة أشرقت علي النفس إشراقات الوهب الإلهي من العلم اللدني وما يتبعه من السعادة الموقوفة علي ما ينكشف للعبد من أسرار العلوم الإلهية .

ولقد كان المتصوفة يرون أن المعرفة هي (أول فرض افترضه الله علي عباده ، بدليل قوله تعالي :" وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ "[1] قال ابن عباس أي (ليعرفون) فجعل ابن عباس بذلك العبادة الحقة هي المعرفة الحقة فلا يتصور عبادة عن جهل وضلال . (وأجمعوا ــ أي الصوفية ــ علي أن الدليل علي الله هو الله وحده ، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل في حاجته إلي الدليل ، لأنه محدث ، والمحدث لا يدل إلا علي مثله ، وقال رجل للنوري : ما الدليل علي الله ؟ قال : الله قال : فما العقل ؟ قال : العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا علي عاجز مثله)[2]

ولقد امتاز الغزالي عمن سبقه من الصوفية بأنه ،(جعل التصوف طريقاً إلي المعرفة ، بالله ، واضح المعالم والحدود)[3] وقد أفاض الغزالي كثيراً في كتبه في الحديث عن المعرفة الصوفية من حيث أداتها ومنهجها وموضوعها وغايتها مقارناً بينه وبين معرفة غير الصوفية من النظار المعتمدين علي مناهج العقل وذلك لأن الناس اختلفوا في المعرفة هل هي فطرية ؟ أم كسبية ؟ أم مزيج بينهما ؟ وللإيضاح عن هذا ــ يجب التفرقة بين المعرفة والعلم فالمعرفة : (إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره .... وهي أخص من العلم ، ويقال فلان يعرف الله ، ولا يقال يعلم الله)[4] والفرق بينهما من وجهين الأول لغوي : والثاني معنوي .

---

(1) سورة الذاريات (٥٦)

(2) السلمي ــ المقدمة في التصوف ــ تحقيق / يوسف زيدان ، صـ ٣٥ .

(3) أبو الوفا التفتازاني ــ مدخل إلي التصوف ، صـ ١٧١ .

(4) أحمد عبد الرحيم السايح : المعرفة في الإسلام بين الأصالة والمعاصرة ــ صـ١٢ ، ط١ ــ القاهرة ١٤١١هـ ، ١٩٨٠م .

والحاصل أن المعرفة نسبة الذكر في النفس وهو حضور ما كان غائباً عن الذاكر ولهذا كان ضدها الإنكار ، وضد العلم الجهل ، قال تعالي : " يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا "[1] (والفرق بين العلم والمعرفة عند المحققين ، أن المعرفة علي مدلول العلم وحده)[2]

واختلاف الدارسين والباحثين في المعرفة أثار ثلاثةً من الآراء المهمة ولكل رأي من الأدلة والبراهين ما يدعمه .

أولاً : المعرفة مكتسبة ووسيلتها ــ الحواس ــ وهذا رأي قرره كثير من رجال الفكر الفلسفي وقد رفعوا في هذا الأمر من قيمة العقل ورأوا أن هناك عقلاً يتلقي الاحساسات التي تأتيه من الحواس وأن العقل كالصفحة البيضاء يتلقي الاحساسات فتكون بذلك المعرفة .

ثانياً : المعرفة فطرية ، وهذا رأي كثير من المتصوفة وذوي التفكير الذين تابعوا في هذا رأي (أفلاطون) الذي يرى أن الإنسان ولد ونفسه عارفة فلما اتصلت بالجسد نسيت وبهذا فإن الإنسان لا يكتسب شيئاً من المعارف بل يتذكرها لأنها موجودة في عالم المثل ولذا فإن (أفلاطون) يقول (العلم تذكر ، والجهل نسيان)[3]

ثالثاً : المعرفة فطرية كسبية : في نفس الوقت ــ ويرى أنصار هذا الفريق (أن العقل البشري بطبيعته يحتوي علي جزء من المعرفة الفطرية ، يضاف إليها جزء آخر مكتسب)[4]

---

[1] سورة النحل (٨٣)

[2] الفيروزآبادي ــ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، صـ ٧٧ ، المجلس الأعلي للشئون الإسلامية .

[3] فكتور سعيد باسيل (منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي) ، دار الكتاب اللبناني ط١ / بدون تاريخ ، صـ ٢٣ .

[4] د/ أحمد المايح ، المعرفة في الإسلام صـ ١٥ .

وإذا كانت هذه هي آراء أهل الفكر في المعرفة ومصادرها فإن للمتصوفة رأي في وسيلة المعرفة تختلف عن الآراء والمذاهب السابقة فهم يرون أن العلم اليقيني إنما يجيئ عن طريق الحدس ، والحدس : هو الإدراك العقلي المباشر الذي يدرك به العقل الحقائق إدراكاً وتذعن له النفس إذعاناً وتوقن به إيقاناً لا سبيل إلي دفعه .

وهذا يؤدي عند الصوفية إلي الكشف والكشف للحقيقة العليا وهي ذات الله هو الغاية من المعرفة . وقد وثب الإسلام بالمسلمين وثبة هائلة : (وهذه الوثبة كانت علي إثر إشعاع القرآن الكريم في جنبات الدنيا والإنسانية فأنارها بعد ظلمة ، وهدى الإنسانية بعد حيرة ، ونظمها بعد اضطراب ، وفتق أذهان أبنائها بعد ارتقاق ، وأزال الأصفاد والقيود التي كانت تقف حجر عثرة أمام الفكر) [١]

وقد نجح الغزالي باستخدام ثقافته الواسعة في وضع نظرية في المعرفة يمكن اعتبارها (متكاملة إذا قورنت بما خلفه السابقون عليه فيها من أقوال متفرقة) كما اعتبرت هذه النظرية تطوراً ملحوظاً في التصوف الإسلامي . [٢] وغايات المعرفة عند الغزالي هي [التخلق ، والحب لله ، والفناء فيه والسعادة] [٣]

لقد ربط الغزالي بين المعرفة والحب ، وبيّن العلاقة بينهما ، فهل يسبق الحب المعرفة ؟ وهل تنشأ المعرفة عن الحب ، أم أن المعرفة هي التي تتقدم الحب ، لقد حسم الغزالي الأمر فقرر أنه لا يمكن أن يتصور حب إلا بعد معرفة وإدراك (إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرف ، ولهذا لم يوصف الجماد بالحب وإنما الحب خاصة من خواص الحي المدرك) [٤] ويكاد الغزالي يتفق مع المتصوفة والمتفقهة حيث يرى (أن المعرفة بالله فطرية) [٥] وهذه المعرفة مركوزة في

---

[١] د. أحمد السايح ، المعرفة فى الإسلام ص ١٥ .

[٢] د/ التفتازاني / مدخل إلي التصوف ، صـ ١٧٢ .

[٣] د/ التفتازاني ـ السابق ، صـ ١٧٥ .

[٤] الإحياء ـ جـ٤/ ٢٥٤ .

[٥] الإحياء ، جـ ٣، صـ ١٢ .

القلب فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق ، لأنه أمر رباني شريف وهو محل الأمانة التي حملها الله له وهي المعرفة والتوحيد في القصد والعمل .

لقد كان الغزالي شديد التعطش لإدراك حقائق الأمور (هذا العطش وإن كان غلب عليه في أول الأمر حب الجاه وذيوع الصيت ، فقد كان كلما تعمق في العلوم تحرر من حب الجاه والصيت ، وكلما تحرر من حب الجاه قوي في نفسه التعطش إلي إدراك حقائق الأمور) [1] فبعد أن كان يطلب العلم لأجل الجاه ، أصبح يطلب العلم لله تعالي (قال بعض المحققين : معني قولهم : " طلبنا العلم لغير الله ، فأبي أن يكون إلا لله " : أن العلم أبي وامتنع علينا فلم تتكشف لنا حقيقته وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه) [2] وهذا هو ما دفع الغزالي إلي التحول بكليته إلي طلب المعرفة والبحث عن الطريق الموصلة إلي الله تعالي .

منهج الغزالي في طلب المعرفة

لقد كان الشك هو السبب في انطلاق الغزالي باحثاً عن المعرفة الحقة ولكن متي بدأ الغزالي يشعر بالشك ؟ وما هو السبب الذي دفعه إلي ذلك ؟ لقد صور هذه المرحلة تصويراً دقيقاً في كتابه المنقذ من الضلال فيقول (فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين) [3] لقد بدأ الشك عند الغزالي حين نظر إلي أمور الحياة والعلوم نظرة تحليلية عميقة ، باحثاً عن مبادئها الأولي وعللها البعيدة ، كما يفعل الفيلسوف حين يتوحش بسبب رتابة الحياة ، فقد وجد الغزالي منذ كان صبياً أن الناس قد أخذوا أديانهم تقليداً عن الآباء والأجداد ، وأن أبناء اليهود يولدون علي دين آبائهم ، وكذلك أبناء النصاري وأبناء المسلمين ، فتأمل هذه الأحوال وتساءل : لماذا يقبل الناس تلك الحقائق علي أنها مسلمات يقينية موروثة لا يمكن الشك فيها ، دون أن يقبلوها علي أساس من البرهان العقلي ؟ لذلك شك في التقليد وأراد

---

[1] د/ فكتور باسيلي ــ منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي (٢٣ ــ ٢٥)

[2] الإحياء ، جـ ١/٥٦ .

[3] المنقذ من الضلال ، صـ ١٠ ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود .

أن يبحث من جديد ، وكأنه لم يتلق أي علم ولم يحصل علي أية معرفة ، ولكي يتقصي الحقيقة بنفسه ويتوصل بجهده إلي اليقين ليصبح إيمانه قائماً علي الاقتناع الذاتي دون الوراثة من الوالدين .

ولكن ما هي أدوات المنهج التي يعتمد عليها الغزالي ؟

لقد أقام الغزالي منهجه علي ركنين ـــ أحدهما العقل ، والثاني الكتب المنزلة وكل من هذين الركنين يتمم الآخر ويكمله ، فكما أن الرؤيا ، لا تتحقق إلا بشرطين أحدهما وجود العين الباصرة ، والثاني النور . إذ لا يمكننا أن نري الأشياء في الليل، وإن كانت أعيننا سليمة ، وإنما نبصرها بالعين ، عند نور الشمس ، والمنطلق العقلي عند الغزالي مؤداه الذي جعله يشك في أي الفرق علي حق هـــو(كثـــرة المذاهب وتعددها) [1] وذلك لأن كل فرقة كانت تري أنها علي الحق وأنها الناجية وأن منهجها هو الأصوب وأما الركن الآخر الذي أقام الغزالي عليه منهجه في المعرفة فهو

الكتب المنزلة :

ويعتمد في ذلك حديثاً عن الرسول ﷺ الذي يقول فيه : (كل مولود يولد علي الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) [2] ويتضح من هذا مكانة الفطرة عنده ـــ كما قد أسلفت من قبل ـــ ويتضح كذلك أن المعرفة عنده لا تقوم إلا علي ركنين : العقل والدين فلا يمكن لإنسان أن يعرف ما يعاقب أو يثاب عليه إلا بالعقل ، ولكن علي ضوء التعاليم المنزلة ، والكتب المقدسة ، وقد أقام الغزالي كتابه (القسطاس المستقيم علي هذين الركنين ، فهو يمثل منهجه في طلب المعرفة ، أصدق تمثيل ، لأنه متخذ من التعاليم التي علمها الله للخليل عليه السلام .

---

(١) منهج للبحث عن المعرفة عند الغزالي ، صـــ ٣١ ، د/ فيكتور باسيلي .

(٢) البخاري في الجنائز (١٣٨٥) ومسلم في القدر (٢٦٥٨/ ٢٢) ومالك في الموطأ ـــ الجنائز ١/ ٢٤١ (٥٢) وأحمد ٢٣٣/٢ .

وقد انتقل الغزالي من الشك إلي اليقين والإيمان بعد أن ظل فترة شهرين يعاني من الشك كان فيهما شبه مريض يبحث عن العلاج حتي شفاه الله (من ذلك المرض وعادت النفس إلي صحتها واعتدالها ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوق بها علي أمن ويقين) [1]

طرق الغزالي في الوصول إلي اليقين

لقد مر الغزالي في الوصول إلي اليقين بالخطوات الآتية :

١- المجاهدة الصوفية وتوهج النور الإلهي في القلب ــ وكما قيل المجاهدة سبيل المشاهدة فقد أصبح الغزالي ــ الباحث عن المعرفة ــ قريباً بذوقه وطبعه وحاله من المتصوفة في حياته وفكره وسلوكه ، فهو عندما تقلب في الشك سارع إلي الاعتكاف والخلوة والزهد في الحياة وظل يمارس مجاهداته الصوفية طوال مدة اعتكافة وخلوته ، حتي وصل إلي مرحلة قذف الله تعالي في قلبه نور اليقين ، حيث أصبح الحجاب مكشوفاً عنه ليدرك بهذا النور الإلهي كل الحقائق اليقينية ويؤكد ذلك بقوله : (ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالي في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف) [2] إذاً (فالمعرفة هنا لا تدرك حقيقتها بالتعلم ، ولا تنال بالنظر العقلي ، بل يحسها الصوفي بشعوره وذوقه ، فمنهج الكشف من هذه الناحية هو منهج ذوقي في المقام الأول ، وهو منهج تتم لأصحابه به معرفة الله معرفة مباشرة) [3] وبذا يصبح الكشف

---

[1] الغزالى ، المنقذ من الضلال ، صـ ٣٢٢ .

[2] الغزالي ــ المنقذ من الضلال ، صـ ١٧ .

[3] د/ الجزار ــ منهج الكشف عند الصوفية ، صـ ٤، ٥ بتصرف ، بحث مقدم لنيل الماجستير.

والذوق من خصائص المعرفة يقول الغزالي (وأما الذوق فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية) [1]

والمعرفة بهذا الأمر يصعب نقلها من أحد إلي أحد فإن لكل تجربة حالة شعورية دافعة لها وناتجة عنها وقد أكد القرآن النور الذي يقذف في قلب العبد قال تعالي " وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ " [2] وهذا النور هو ثمرة لمجاهدة النفس في سبيل الله ، وذلك لأن العبد إذا جاد بنفسه لله كما يقول : أسلم بن زيد (أورث قلبه الهدي والتقي ، وأعطي السكينة والوقار والعلم الراجح والعقل الكامل) وبذا فإن العلم الحاصل من لدن الله تعالي للعبد لا يتأتي إلا بمجاهدة النفس وقتل هواها .

٢-الحدس القلبي للحقائق اليقينية : لقد ذهب الغزالي ومعه الصوفية إلي أن البرهنة الوحيدة التي تصح عند الصوفية " العيان المباشر " ورؤية الإيمان في القلب ، وهذا نوع من المعرفة لا يصل إليه إلا القلة من الناس (وعند الغزالي أن المعرفة الخاصة بالقلب لا يجحدها إلا كل مكابر) إن النور الإلهي يساعد القلب علي حدس الحقائق اليقينية التي تعجز عقولنا وحواسنا عن إدراكها وقد رأي الغزالي أن هناك حقائق يقينية أعلي من مستوانا البشري ، ولا يدركها إلا من تصوف وخلع عن نفسه رداء الدنيا والحسد وجاهد ليرقي إلي المستوي الروحاني العلوي ، حيث يقذف الله تعالي حينئذ في قلبه ذلك النور الإلهي ، وتلك النفحات الربانية التي تمثل الحقائق اليقينية مؤكدا ذلك بقوله (من ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبعث عن الجود الإلهي ، في بعض الأحايين ويجب التعرض له كما

---

[1] الغزالي ــ المنقذ من الضلال ، صـ ٨٧ ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود ــ دار الكتب الحديثة ــ القاهرة ــ ط٧ .

[2] سورة الأنعام (١٢٢)

قال رسول الله ﷺ " إن لربكم في أيـــام دهركـــم لنفحـــات ، ألا فتعرضوا لها "[1] [2] .

٣-عودة اليقين :

لقد عاد للغزالي يقينه وثقته فيما كان موضع شكه من قبل ولم يكن ذلك عن مجهود منه كما بين ذلك في المنقذ من الضلال ولكنه كان منّة من الله تعالي بواسطة النور الإلهي فعادت إليه طمأنينة قلبه وراحة باله وشفي من مرض الشك حيث أصبح متيقنا من وجود الله تعالي مفرقاً بينه وبين العالم الخارجي بكل يقين ودون أدني شك ، لأن اليقين القلبي بوجود الله يجعل الإنسان متيقنا من صحة مخلوقات الله تعالي ، وقد جعل من النور القلبي والحدس القلبي وسائل يقينية لإدراك مختلف حقائق الوجود التي كانت موضع شك سابق قبل التوصل إلي اليقين الإلهي وكانت رحمة الله تعالي به واسعة فهداه إلي (نور علي نور)

النور الأول (العقل) ، النور الثاني (البصيرة) وهما في الحقيقة طريقا المعرفة :

والطريق الأول ــ العقل ــ لا يتعدي نطاق الحواس ، وهذا النوع من المعرفة يجيز الغزالي فيه استخدام المنطق سواء في الأمور العقلية أو الفقهية ، ويري أنه لا سبيل إلي تحصيل العلوم الموصلة إلي السعادة إلا بالمنطق ، ومع ذلك فإنه في مواضع أخري يهاجم المنطق لأنه يثير الجدل واللجاج والشبهات حول العقيدة [ويبدو أنه يريد بذلك إبعاد العوام عن طريق المحاجة المنطقية][3]

---

(١) أوردة الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٣/١٠ ، وقال (رواه الطبراني في الأوسط الكبير بنحوه ، وفيه من لم أعرفه ، ومن عرفتهم وثقوا)

(٢) الغزالي ــ المنقذ من الضلال ، صـــ ٣٣٤ .

(٣) د/ محمد علي أبو ريان / تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، صـــ ٥٠٧ ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٣م .

وهذا بدوره يسوق إلي التعمق في الفلسفة . والكلام ومسائلها والتي هاجمها الغزالي وهدّم أركانها .

أما الطريق الثاني (وهو من لدن الله تعالي) بلا مجهود ولكنه من عين الجود وسببه الاشتغال بالتفكير ، وهو طريق يبدأ بالمجاهدة أو بالمعاملة لصقل وتهذيب القلب وذلك بالزهد والعبادة وشدة التقوي استجلاباً لإشراق العقل (أي محو ظلمته) وهذه هي معرفة الخواص الواصلين وهذه المعرفة (تتم بلا واسطة من حضرة الحق) [1] فإن (الذي يكتسب لا بطريق الدليل وصلة الاكتساب يسمي إلهاماً ، والذي يحصل بالاستدلال يسمي اعتباراً واستبصاراً) [2]

وقد كشف الله تعالي عن غطاءه وشكه وأدرك أن من يهبه الله طريق الذوق والكشف يستطيع أن يصل إلي العلم اليقيني الذي لا شك فيه ، ولا يستطيع أن يصل إلي مرتبة الكشف إلا الواحد بعد الواحد ممن اختارهم الله وقذف في قلوبهم نوراً من نوره هو مفتاح المعرفة وسبيل الطمأنينة النفسية والعقلية والقلبية وبهذا تبين كيف وصل الغزالي إلي اليقين المطلق الذي كان ينشده ويتلهف إليه ولم يكن ذلك بطريق المعارف الحسية والمبادئ العقلية ولكنه كان بطريق النور الذي وقر في صدره عن طريق الحدس المعرفي .

" ما هو الحدس المعرفي الذي أنقذه من حيرته ؟ "

لقد بينت من قبل أن الحدس هو سبيل العلم اليقيني عند الصوفية وعند الغزالي كذلك فهو كشف عقلي قد بلغ من الظهور والوضوح أن زال معه كل شك وبلغ من السرعة والبساطة أن يتم دفعة واحدة لا علي التعاقب ولابد له من صفاء القلب ومجاهدة النفس حتى نصل إلي مرتبة من الصفاء تتيح لها من المعارف ما لا تصل إليه الحواس والعقول معاً ويقول الغزالي في هذا :

---

[1] د/ التفتازاني ــ المدخل ، صـــ١٧٥ .

[2] الإحياء ، جـــ ٣ ، صـــ ١٦ .

(إن الصوفية انتهوا إلي أن الطريق إلي إزالة الحجب تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة علي الله تعالي ، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل لـــه بتنويره بأنوار العلم) [١] ويحدد الغزالي مرة أخري المعرفة الحدسية بقوله : (من مارس العلوم يحصل عن طريق الحدس قضايا لا يمكنه إقامة البرهان عليها ولا يمكنه أن يشك ولا يمكنه أن يشرك غيره فيها بالتعليم إلا أن يدل الطالب علي الطريق الذي سلكه واستنهجه) [٢] وإذا كانت المعرفة الحدسية لا يستطيع المرء البرهنة عليها إلا أنها أيضاً لا يمكن أن يشك فيها ، لأن هذه المعارف الحدسية فيها اليقين المطلق الذي يطلبه الغزالي للعلم الحقيقي والذي اهتدي إليه أخيراً وقد أرجع الغزالي السبب في هذه المعارف الحدسية إلي أنها (نور قذفه الله في صدره وهو ما يسمي بالعلم اللدني . [٣]

ويرى الغزالي أن (حصوله ناتـــج عن اتصال النفس الكلية بالنفس الجزئية) [٤] وهذا النور أو العلم اللدني هو السبب المباشر في معرفة الله وهو أساسها فإن (معرفة الله تحدث بواسطة هذا النور) [٥]

وقد ميز الغزالي في الإحياء هذه المعرفة التي تورث الإيمان اليقيني عن الإيمان الحادث عن طريق التقليد وعن طريق المتكلمين ، فيقول عن علم الآخرة الذي غايته النهائية معرفة الله تعالي (ولست أعني به الاعتقاد يتلقفه العامي وراثة أو تلقفاً ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات

---

(١) الإحياء ، جـ ٨ ، صـ ١٣٧١ .ط دار الشعب ـ القاهرة .

(٢) الغزالي ـ معيار العلم ـ صـ ١١٥ .

(٣) الغزالي ـ الرسالة اللدنية ـ صـ ١١٦ .

(٤) الغزالي ـ الرسالة اللدنية ، صـ ١١٦ . ط من القصور العوالي ، جـ ١ ، تحقيق / محمد مصطفي أبو العلا ـ طبعة الجندي .

(٥) الإحياء ـ جـ ١/ ٥٨ .

الخصم كما هي غاية المتكلم بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله في قلب عبد طهر بالمجاهدة نفسه من الخبائث) [1]

وبهذا فإن العقل قد استعار النور من الله تعالي فإنه إن كان (أنموذج من نور الله) [2] فإن الله تعالي هو الذي يسمى نوراً بالمعني الحقيقي والإنسان حاصل علي هذا النور لأنه مخلوق علي صورة الله تعالي ، وهذا النور هو الذي يجعل معرفة الأصل ــ (أي الله تعالي) ــ ممكنة (فإن العقل عندما يكون قادراً علي التجرد من كل ما لا يمثل جوهره الحقيقي ، فإنه يكون نوراً قد استعاره من الله الذي هو النور الحقيقي الوحيد الذي ينبعث منه كل نور) [3]

وبهذا يتبين أن المعرفة التي توصل إليها الغزالي في مرحلته الأولي من شكه هي المعرفة الحدسية ، وهي معرفة لا شعورية وهي عبارة عن نور قذفه الله في صدره ولكنه لم يكن بمعزل عن العقل ، فإن العقل عندما يصفو فإنه يستمد نوره من النور الحق وهو الله عز وجل .

ولقد مر الغزالي بمرحلة ثانية من أزمته الفكرية ولكنها سريعاً ما انتهت عندما قرر ممارسة التصوف ــ حيث وجدها الطريق المؤدية إلي الطريق الذي ينشده .

" حظ العقل من المعرفة الصوفية "

لقد أوضح الغزالي أن الطريق الصوفي المؤدي بدوره إلي المعرفة له شرط هام وهو تطهير القلب وتفريغه تفريغاً كاملاً من كل ما عدا الله ، ومفتاح

---

(1) الغزالى ، الإحياء / ج١ ، ص ٨٥ .

(2) الغزالي ، المشكاة ، صـــ ٨ ، تحقيق الشيخ / مصطفي أبو العلا ــ طبعة الجندي .

(3) المرجع السابق ، صـــ ٨ .

ذلك هو استغراق القلب بالكلية بذكر الله " ــ وقد مارس الغزالي ذلك بنفسه في خلوته ــ وآخر هذا الطريق هو " الفناء بالكلية في الله " [1]

وهذا لا يحدث في الحقيقة إلا لمن عرف الله قبلاً مسترشداً بعقله ، وقد (توصل الغزالي إلي هذه المعرفة بطريقة فلسفية قبل تحوله إلي التصوف) [2]

ويتمثل دور العقل في الطريق الصوفي في وظيفتين أساسيتين :

الأولي :

وتأتي عن طريق العقل تستوفي الشروط المطلوبة للحصول علي المعرفة الصوفية وهذه الشروط بينها الإمام الغزالي وهي ثلاثة :-

(أحدها : تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها ، والثاني : الرياضة ، الصادقة ، ..... والثالث : التفكير ، فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تتفكر في معلوماتها بشروط التفكير ينفتح عليها باب الغيب .... فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوي الألباب ، وتنفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالماً كاملاً عاقلاً مؤدياً) [3]

الثانية :

وهي الأساسية للعقل وهي واضحة بينه في الحكم الناقد علي التجارب الصوفية وتقويمها تقويماً صحيحاً فإن (كلام الصوفية أبداً يكون قاصراً ، فإن عاذه كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط) [4] والذي يفهم قصورها هو اقتصارها علي صاحبها فإن طريقهم حقيقته (الذوق)

---

(1) المنقذ من الضلال ــ صـ ١٣١ .

(2) الرسالة اللدنية ، صـ ٣٦ وما بعدها .

(3) السابق ، صـ٣٦ وما بعدها .

(4) الإحياء ٤/ ٤٢ .

. وقد قامت دعوى مؤداها أن التجربة الصوفية أمور لا عقلية ، وهي خارجة عن نطاق العقل فوضح الغزالي ــ والذي يعتد بالعقل جداً ــ أنه لا يجوز مطلقاً في سلوك الطريق إلي الولاية بمفهوم الصوفية شيء ما يجد العقل نفسه معه مضطراً للحكم عليه بالاستحالة فيؤكد (أنه لا يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقضي العقل باستحالته) [١] وأن العقل قد يكشف له عن شيء ولا يدركه ، ولكن ليس من الممكن أن يكشف له عن شيء يحكم عليه العقل بالاستحالة . وقد أبان الغزالي عن الفرق بين الأمرين بالنسبة للعقل من حيث عدم الإدراك أو الاستحالة فيضرب لذلك مثالاً وكثيراً ما يلجأ إلي ضرب الأمثلة لتقريب المعاني من الأفهام المختلفة فيقول في هذا الأمر .

" نعم ، يجوز أن يظهر فيها ما يقصر العقل عنه بمعنى أنه لا يدركه بمجرد العقل ، مثاله أنه يجوز أن يكاشف الولي بأن فلاناً سيموت غداً ولا يدرك ببضاعة العقل بل يقصر العقل عنه ، ولا يجوز أن يكاشف بأن الله غداً سيخلق مثل نفسه فإن ذلك يحيله العقل لا أنه يقصر عنه) [٢]

وقد حاول الغزالي التفريق بين العلوم المكتسبة العقلية والعلوم الأخرى التي ينالها العارف بنور من الله فكان يرى (أنه يوجد بجانب العلم المكتسب من طريق التعلم والدرس علم آخر يحصل عليه المرء مباشرة بدون واسطة أو تعلم ، وهذا العلم المباشر يكون للأنبياء والأولياء ويقع في قلوبهم بدون واسطة من حضرة الحق كما قال سبحانه : " وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً " [٣]

ويسمى هذا العلم بالإلهام وهو العلم اللدنى (وهذا العلم يكون بعد التسوية، كما قال الله تعالي "س وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا " [٤]

---

(١) المقصد الأسني ــ صـ ١٠٠ لحجة الإسلام ــ الغزالي ، تحقيق محمد مصطفي أبو العلا ــ مطبعة الجندي ، بدون تاريخ .

(٢) المقصد الأسني / نفس الصفحة

(٣) سورة الكهف (٦٥)

(٤) سورة الشمس (٧)

المعرفة الكشفية

لقد كان الغزالي يبنى جميع تصرفاته على الأوليات العقلية فيتعلم ويكتب ويؤلف ولكنه فقد يقينه بالعقل ودخل في دائرة الشك المعروفة حتى هداه الله تعالي بالنور اللدنى فاستعاد به (إيمانه بالأوليات العقلية وذلك بالكف عن طلبها فالنور الذي شفى به ، إنما هو تفطنه إلي وجوب الكف عن طلبها لأنها، لأنها حاضرة وأنه يضيعها بقدر ما يفتش عنها) [1] ولقد قابل الغزالي بين العلم الكسبي العقلي وبين الوحي ، فإذا العلم يكتسب بواسطة الدليل والتعلم ، في حين أن الوحي هو المعرفة التي تهجم علي القلب من حيث لا يدري وهذا هو الإلهام أو ما يسمى بالنور ، وبينهما توافق لأنهما من توفيق الله تعالي فإذا (أحضرت العلوم بالنفس علي ترتيب مخصوص استعدت النفس أن يحدث فيها العلم من عند الله تعالي) [2] وهذا العلم يدخل ضمن علوم [لا نستطيع البرهنة عليه ، لان بطبيعته لا يقبل البرهنة عليه لأنه بطبيعته لا يقبل البرهنة ، كما أن طريقة معاينته أيضاً لا تقبل بدورها البرهنة] [3] .

والمعرفة الصوفية أداتها القلب ومنهجها الكشف . أما من حيث الأداة المعرفية فإن القلب مغاير للحواس والعقل ، ويقصد به (الروح التي هي حقيقة الإيمان) [4][5]

---

[1] د/ باسيلى – منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي صـــ٣٧

[2] معيار العلم للغزالي صـــ١٨٣

[3] فيصل بدير عون – التصوف الإسلامي الطريق والرجال صـــ٢١٢

[4] الإحياء جـ٣ ٣ ، ٤

[5] إحياء علوم الدين – جـ٣ صـــ٣، ٤ – يطلق لفظ القلب لمعنيين :– أحدهما : اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، الثاني : لطيفه ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ولها علاقة مع القلب الجسماني .

أما الروح : فيطلق على معنيين : أحدهما : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، الثاني : هو اللطيفة الربانية العالمة المدركة من الإنسان ، وهو الذي أراده الله في قوله تعالي (قل الروح من أمر ربى) [الإسراء : ٨٥] وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر الأفهام والعقول عن إدراك حقيقته .

النفس : وهو أيضاً مشترك بين معان : أحدهما : أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان وهذا هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان .

المعنى الثاني : هي اللطيفة التي هي الإنسان بالحقيقة ، وهي نفس الإنسان وذاته .

العقل : وهو مشترك لمعان مختلفة منها : أن يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفه العلم الذي محله القلب ، والثاني : أن يطلق ويراد به المدرك للعلوم ، فيكون هو القلب – أعنى تلك اللطيفة الربانية .

ويري الغزالي : (أن القلب كالمرآة ، والعلم هو انطباع صور الأشياء وحقائقها في المرآة ، ولابد أن تكون المرآة مجلوه حتى تستطيع أن تعكس بدقة خصائص العلوم ، والذي يجلي القلب هو مداومة ذكر الله تعالي ، والابتعاد عن الشهوات ، والإقبال علي طاعة الله تعالي) [1] وبهذا فإنه يضع السبيل الذي به يصان القلب ويصقل ولاسيما أنه محل للنور الإلهي لذا فإنه يؤكد علي أن (المعرفة بالله فطرية) [2] مركوزة في القلب وذلك لأنه محل الأمانة التي حملها الله له وهي معرفة الله وتوحيده ، ويحاول الغزالي زيادة الإيضاح بضرب الأمثلة على أن القلب هو أداه المعرفة الكشفية بمثال حيث يقول (لو فرضنا حوضاً محفوراً في الأرض ، احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلي أن يقرب من مستقر الماء الصافي ، فينفجر الماء من أسفل الحوض ، ويكون ذلك الماء أصفي وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر ، فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمسة مثل الأنهار ، وقد يمكن أن تساق العلوم إلي القلب بواسطة أنهار الحواس ، والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلئ علماً ، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة ، وغض البصر ويعمد إلي عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله) [3] ويضع الغزالي سؤالاً والإجابة عليه بقوله(فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ، ولا يسمح بذكره في علم المعاملة ، بل القدر الذي يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ بل في قلوب الملائكة المقربين) [4]

فالقلب يحصل فيه صوره العالم وحقيقته تارة من الحواس وتارة عن طريق اللوح المحفوظ ، وإذا أرتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه ، فاستغني بذلك عن الاقتباس من داخل الحواس

---

(1) الإحياء جـ٣ / ١١ ، ١٢
(2) السابق صـ٣
(3) معارج القدس للإمام الغزالي صـ١٣٤ طبعه القاهرة سنه ١٩٢٧م ، الإحياء ٣ / ٢٠
(4) الإحياء ٣/ ٢٠

فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض ، ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة عن المحسوسات كان ذلك حجاباً له عن مطالعه اللوح المحفوظ ، كما أنْ الماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفجر من الأرض .

(فإذن للقلب بابان : باب مفتوح إلي الحواس الخمسة المتمسكة بعالم الملك والشهادة يحاكى عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة) [1] وعندما يقرر الغزالي أن علم الأولياء والصوفية علم وهبي يأتي عن طريق إطلاعهم على اللوح المحفوظ مباشرة ، أما علم الحكماء والعلماء فهو كسبي يأتي عن طريق الحواس الناقلة ، عن عالم الملك ، ويرى أن علم الصوفية مصدره القلب ، أما علم العلماء فإنه يأتي عن طريق الحواس . بعدما يقرر الغزالي هذا نراه يبين الفرق بين عمل الأولياء وعمل العلماء كذلك : بأن العلماء يحاولون اكتساب ذات العلوم التي يعمل الأولياء على اكتسابها إلا أن الفرق بينهما أن العلماء يحاولون جلبها من الخارج بالاعتماد على الحواس فيما يعمل أوليـــــاء الصوفية علي تفجيرها من داخل القلب (وهذه الطريقة لا تفهم إلا بالتجربة ، وإن لم تحصل بالذوق ،لم تحصل بالتعليم ،والواجب التصديق بها حتى لا تحرم شعاع سعادتهم ،وهو من عجائب القلب ، ومن لم يبصر لم يصدق كما قال الله تعالي " بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ " [2] وقوله " وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ " [3] وبهذا يكون الإمام الغزالي قد وضح الفرق بين المعرفة التي تأتى عن طريق الحواس والمعرفة الكشفية التي تأتى من داخل القلب بعد إزالة كدرة المعاصي ورفع حجب الشهوات ، إذ تتكشف له حقائق الأشياء المسطورة في اللوح المحفوظ ، ويسمى ذلك العلم الذي يحصل بالاكتساب ، وحيله الدليل اعتبارا واستبصارا والعلم الذي لا يحصل بالاكتساب ولا حيله الدليل فيه : ذوقاً وكشفاً ، وهو إما إلهام أو وحي ؛ والإلهام خاص بالأولياء والأصفياء والوحي خاص بالأنبياء ، ويختلف الإلهام عن

---

[1] الغزالى ــ الإحياء ج٣ ص ١٨ .
[2] سورة يونس (٣٩)
[3] سورة الأحقاف (١١)

الوحي في أن صاحبه لا يرى الملك المقيد للعلم ، أما الوحي فإن الأنبياء يشاهدون فيه جبريل حين يوحي به إليهم .

وإذا تبين أن الأولياء يبلغون معارفهم بطريق الكشف لا بطريق الاستنباط فالمعرفة الكشفية إذن وسيله لإدراك الحقيقة التي توصل إلي العلم اليقيني ، وهي الأمانة التي تشير إليها الآية الكريمة " إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً " [1] وقد حدد ذو النون المصري من قبل المعرفة الصوفية بقولة (المعرفة إطلاع الخلق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار) [2] وهذا يدلنا على أن المعرفة هنا ضرب من الإشراق الذي يحدث داخل النفس ، وهو الإشراق الذي يحدث بفعل عناية الله وفضله ، ومن هنا يتمكن صاحب هذه المعرفة من إدراك ما كان يبدو له مستحيلاً من قبل وفي هذا تفترق معرفة الكشف عن معرفة النظر أو الاستدلال) [3] يظهر من هنا أيضاً أن المعرفة التي يتوصل إليها الصوفي هي معرفة مباشرة (بغير وسائط من مقدمات أو قضايا أو براهين ، إنها معرفة فوق عقليه لا يحوزها إلا من سلك طريق التصوف وألهم المعرفة المباشرة ومن هنا تسمى كشفا) [4]

ولهذا أيضاً يرى الصوفية أن هذه المعرفة تمثل (علم الصديقين وأن من كان له منها نصيب فهو من المقربين وينال درجة أصحاب اليمين ، وهي من مواهب الله وكرمه ، ولا تأتى إلا بعد طهارة القلب وتزكيته ، هنا لك تفيض الأنوار عليه من قبل الواحد الحق ، وإذا وصل المرء إلي هذه الدرجة سمى عارفاً) [5]

---

[1] سوره الأحزاب (٧٢)
[2] القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء – القاهرة سنه ١٩٢٦م – صـــ١٢٧
[3] د/ الجزار – منهج الكشف عند الصوفية صـــ١٥
[4] د/ عبد الرحمن بدوي تاريخ التصوف الإسلامي صـــ٢١ وكالة المطبوعات بالكويت .
[5] المكي – قوت القلوب ١/ ١٧٣.

ولقد وصل الغزالي في بيانه لمنهج الكشف وتوكيده بالأدلة العقلية والبراهين التي يراها إليْ أن نشأ تيار منحرف من بعده اعتمدوا في فكرهم على مكانة الغزالي من النفوس فتشجعوا من بعده على التطرف والغلو دون حرج بحجة أنها (حصلت بطريقة كشف المشاهدة) [1] فعندما انفتح الباب على مصراعيه بدعوى الكشف والاطلاع أدخل فلاسفة التصوف وأرباب التجلي وأصحاب الحضرات في الفكر الإسلامي سموم الاصطلاحات الفلسفية والتعبيرات الرمزية) [2]

معرفة الله ومعرفة النفس

لقد أكد الغزالي على أن المرء لا يصل إلي المكاشفة والتمتع بالقرب من الحضرة الإلهية إلا بمجاهدة النفس لأنها تميل بطبعها إلي الشهوات ولكنه مع تأكيده على ضرورة المجاهدة كشرط للحصول على المشاهدة إلا أنه يؤكد أيضاً على ضرورة الفضل الإلهي (فليس على المرء إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار النية مع الإرادة والتعطش التام والترصد والانتظار لما يفتحه الله تعالي من الرحمة) [3] وذلك يعنى عنده أن مجاهدة النفس ما هي إلا وسيله لتجلية القلب وتصفيته من أكداره وشهواته فإذا ما تم ذلك فإن السالك يكون مستعداً لتلقى إمدادات أنوار المعرفة الإشراقية (لكن ذلك كله عند الغزالي يبقى معلقاً بانتظار الجود الإلهي أو المنة الربانية) [4] وهذه الرحمة (مبذولة بحكم الجود الإلهي غير مضنون بها على أحد ولكن لابد من الاستعداد للقبول بتزكية النفس وتطهيرها من الخبث والكدورة) [5]

---

(1) ابن تيمية – بغيه المرتاد صـ٢٠

(2) د/ مصطفي حلمي – التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث صـ٢٨٩ – دار الدعوة الإسكندرية ط١ .

(3) الغزالي ميزان العمل صـ٤٦ ، تحْقيق الشيخ / محمد مصطفي أبو العلا ــ مكتبة الجندي.

(4) د/ الجزار – منهج الكشف عند صوفية الإسلام ، صـ٦٦ .

(5) الغزالي – ميزان العمل صـ٣٣

وليس المراد بتزكية النفس ومجاهدتها إلا (تصفية القلب أو تحقيق طهارته ، ومن ثم يكون الكشف أو المشاهدة فإنه إن كان طريق العلم الحصولي النظر ، فالعلم الحضوري طريقه التصفية) [1].

ولقد كرّس الغزالي كل جهوده من أجل الوصول إلي معرفة الله تعالي وهو يرى أن معرفة الله تعالي فطرية عند كل إنسان ، تماماً مثل الحقائق الرياضية وهي أول المعارف وشرط لها : (فلو عرف الإنسان كل شيء ، ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئاً) [2] وذلك أيضاً لأنه هو الموجود الحق (فالموجود الحق هو الله تعالي ، كما أن النور الحق هو الله تعالي ، فإن كل شيء سواه إذا أعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض وإذا اعتبر من الوجه الذي يسرى إليه الوجود من الأول الحق رؤى موجوداً لا في ذاته ، لكن من الوجه الذي يلي موجده) [3]

والفرق واضح بين ماهية المخلوق وماهية الخالق والفرق بين الله والموجودات (أن الله وجوده من ذاته وكل الموجودات الأخرى وجودها منه) [4] وأيضاً فإن كانت (ماهيـــة الإنسان ووجوده يمثلان (أثنينيه فـــإن ماهيـــة الله ووجوده يمثلان وحدة واحدة) [5]

ولا يوجد (على الحقيقة شيء غير الله وأفعاله) [6] أي مخلوقاته وعلى الإنسان أن يسعى دائماً إلي ما فطر عليه من معرفة الله تعالي ، و إن كان هذا من المستحيل فذلك لأن الإنسان قاصر عن الإحاطة بمعرفة ربه معرفة كاملة ، ولأن (ماهيته الله لا يمكن أن يعرفها إلا الله نفسه) [7] وقد أكد الغزالي على هذا كثيراً

---

[1] طاش كبرى زاده / مفتاح السعادة – تحقيق كمال البكري جـ٣ صـــ٦
[2] الإحياء جـ٣ / ٦١
[3] مشكاة الأنوار صـــ٥٥ – تحقيق د/ أبو العلا عفيفى – الدار القومية سنه ١٩٦٤م
[4] د/ زقزوق – المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ط٢ سنه ١٩٨١م صـــ١٠٨ – مكتبه الأنجلو المصرية .
[5] معارج القدس صـــ١٨٩ وما بعدها
[6] المقصد الأسنى صـــ٢٥ ومعارج القدس صـــ٢٠٦
[7] المقصد الأسنى صـــ٣٢ ، المعارج صـــ١٠٤ إلجام العوام صـــ٢٧٠ ، المستصفي صـــ٢٧ ، جواهر القرآن صـــ١٢

وبين أنه (من المستحيل أن يحصل أحد على هذه المعرفة إلا الله وحده) [1] فهو يحيط ولا يحاط ، تقدس اسمه وتعالي جاهه وسلطانه والسبيل الوحيد الذي يستطيع المرء به أن يتقرب من معرفة الله تعالي معرفة غير كاملة - بطبيعة الحال - هو أن يعرفه عن طريق أفعاله أي مخلوقاته وتجليات قدرته ، يقول الغزالي (والعالم هو السلم إلي معرفة البارئ سبحانه فهو الخط الإلهي المكتوب المودع المعاني الإلهية ، والعقلاء على اختلاف طبقاتهم يقرءونه) [2]

وإذا كانت معرفة الله معرفة كاملة تظل ممتنعة لا يستطيعها الفهم الإنساني ، فإنه لا بديل عن الاقتراب من تحقيق هذه المعرفة وذلك (يكون عن طريق القلب الذي هو محل معرفة الله) [3] وهذه هي وظيفته الحقيقية التي عليها مناط التكليف ولا سبيل لمعرفة الله تعالي إلا إذا عرف الإنسان نفسه أولاً ، فإن معرفة الله تعالي متوقفة على معرفة النفس (فإن من عرف نفسه فقد عرف ربه ومن جهل نفسه فقد جهل ربه) [4]

معرفة النفس

(إن شرف الإنسان لاستعداده لمعرفة الله وإنما استعداده للمعرفة بقلبه ، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه،وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه) [5] ولكن هناك عقبات تقف في طريق هذه المعرفة ولا يصل الإنسان إلي معرفة الخالق إلا إذا كان في حالي صفاء قلبي وأن يكون جسمه خالياً من العلل . وقد فرق الغزالي بين الجسم والنفس فإن (جوهر الإنسان بالحقيقة هو النفس الناطقة العاقلة المدركة العاملة) [6] وهي ليست جسماً ولا موجودة متحدة بالجسم أو في جزء منه والدليل على ذلك أنه لو (فقد جزء من الجسم فإن النفس لا يعتريها

---

[1] الغزالى / المقصد الأسنى صـــ٢٩
[2] معراج السالكين صـــ٢٢٦
[3] المنقذ من الضلال صـــ١٤٤
[4] د/ غلاب – المعرفة عند مفكري المسلمين صـــ٣٢٣
[5] الإحياء جـ٣ صـــ٣
[6] الغزالي / المعارف العقلية صـــ٦٦ تحقيق عبد الكريم العثمان – دمشق ١٩٦٣م

بسبب ذلك أي نقصان) [1] والنفس تتبع عالم الألوهية أو (عالم الأمر) أما الجسم فإنه يتبع عالم المادة (أو عالم الخلق) وهما معاً يشكلان الذات وهي محل للمعرفة وموضوع المعرفة كما يقرره كل من العلماء والفقهاء والمتصوفة هو الله تعالي ، والنفس تستند إلي أن الإنسان مخلوق على صورة الله ، وهذه الصورة التي يصفها الغزالي ويجلى معناها تتعلق (بالذات والصفات والأفعال ، فماهية الإنسان هي نفسه وروحه ، وهي قائمه بنفسها ، فليست عرضاً ولا جسماً ولا جوهراً متميزاً ، وليست مكانية ، وليست متصلة بالجسم ولا منفصلة عنه) [2] بالإضافة إلي ذلك فإن وجه الشبه بين صفات الإنسان وصفات الله تعالي (أن صفات الإنسان مثل صفات الله تعالي من حيث أنه حي عالم مريد قادر ، وأفعال الإنسان تشبه أفعال الله من حيث إنه يتصرف في جسمه عن طريق إرادته كما يتصرف الله في العالم) [3] ولكن سبيل الإنسان لمعرفة الأشياء إنما يتم بضرب الأمثلة وقد كتبت صورة الإنسان – بخط الله – وهو ما جعله قادراً على معرفة الله تعالي وإن كان هناك تشابه في الأسماء والصفات بين الإنسان وربه تعالي فإنه تشابه من حيث الأسماء وليس من حيث الحقيقة وهو قياس مع الفارق ولكن منّه الله هي التي جعلت (الإنسان قادراً على معرفة الله وبذا أنعم الله على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة بجميع أصناف ما في العالم ، ولولا هذه الرحمة لعجز الإنسان عن معرفة ربه إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه) [4] ويضع الغزالي الصورة في وضعها الحقيقي حتى لا تشتط العقول والأفهام فيبين أنه إذا كان يجب على الإنسان أن يعرف ذاته لكي يعرف ربه فمن الواجب عليه أن يعرف أن صفات الإنسان ليست كصفات الله فيقول (اعلم أنا وإن تدرجنا إلي معرفة ذاته وصفاته أن معرفة النفس فذلك على سبيل الاستدلال ، وإلا فالله منزه عن جميع صفات المخلوقات) [5] فإنه سبحانه " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ

---

[1] الغزالى ، معارج القدس صـــ٣٣ وما بعدها
[2] الغزالي / المضنون الصغير صـــ١٥٩ تحقيق محمد مصطفي أبو العلا – مكتبه الجندي .
[3] معارج القدس صـــ١٩٨
[4] مشكاة الأنوار صـــ٧١
[5] معارج القدس صـــ١٩٧

البَصِيرُ "[1] وحتى يستطيع الإنسان أن يصل إلي معرفة الله تعالي وأنه هو خالقه ورازقه وحافظه ومدبر أمره ومعينه فلا بد أن يصل إلي معرفة حقيقية لذاته (فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لاوجود له من ذاته ، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده ، وكمال وجوده من الله وإلي الله وبالله) [2]

ويحدد الغـزالي السبيل الموصلة إلي معرفة الله تعالي فإذا هي في طريقين :-

الأول :

(أن يكون للإنسان ما لله من حكمة وقدرة وعلم وهو السبيل المسدود الممتنع لا على الناس فحسب ، بل على الأولياء والملائكة ، إذ لا ينبغي لأحد أن يطمع في مماثلة الله علماً وحكمة وقدرة ، والذي يطمع في ذلك ، منخلع عن ربقه العقل وهذا ما أحاله الصوفية أنفسهم قال أبو بكر القحطي (من لحقتة العقول فهو مقهور إلا من جهة الإثبات ولولا أنه تعرف إليها بالألطاف لما أدركته من جهة الإثبات ، وأنشدوا :

مَن رامَــــهُ بالعقل مسترشداً   سَرّحَهُ في حَيرةٍ يَلْهُــــو

وشابَ بالتلبيس أســــرَارَهُ   يقول مِن حَيرتِهِ هَـل هُـو

وقد سئل الجنيد :- بماذا عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ، فلولا ربى ، ما عرفت ربى ! [4]

الثاني :

(معرفة الصفات ، فإنه مفتوح لكل الخلق ولهم أن يجاهدوا فيه كلٌ على قدر طبعه واستعداده ، والعارفون يتفاوتون في معرفة صفاته وأسمائه ، فالذي

[1] سورة الشورى (١١)
[2] الإحياء جـ٤ ./ ٢٩٣
[3] الكلاباذى – التعرف صــــ٧٧
[4] السلمي : المقدمة في التصوف صــــ٣٦ ، الرسالة القشيريه ٢/ ٦٨ منقولاً عن ذي النون المصري

يعرف علماً واحداً لا يمكنه أن يفهم العالم الذي يعرف عشره علوم إلا نسبه واحد على العشرة ، وكما أن نسبة فهم الإنسان للعالم تزداد بزيادة مقدار علمه فهكذا يزداد فهمه لله بقدر كثره علومه واتساع معارفه ؛ إلا أن معرفة الصفات والأسماء ثمرة الدليل العقلي هي معرفة يقينية إلا أنه لا يمكن أن تبلغ من اليقين ما تبلغه الرؤية والمشاهدة .) [1]

وإذا كانت المعارف تختلف باختلاف وسيلتها فإن الغزالي يحدد ثلاث مراتب لليقين أو الإيمان [2]

الأول :- إيمان التقليد وهو : إيمان العوام المستندون إلي الخبر وهؤلاء يصدقون ما يخبرهم به أهل الثقة كأن يقال لهم : إن فلاناً في الدار فيؤمنون بما يسمعون .

الثاني :- هو إيمان المتكلمين والنظار : وهم بنوا إيمانهم على الدليل العقلي والاستنباط كأن يسمعون فلاناً في الدار يتكلم فيعرفون أنه في الدار وقد يتطرق إلي هؤلاء ومن سبقهم الشك من كثره العلل وتسلسلها والدليل على هذا أن من بينهم من فقدوا إيمانهم بالله من الفلاسفة والمتكلمين - وهم بدورهم أفسدوا من بعدهم إن قُدّر أن يجمع بينهم حال من الأحوال .

الثالث : إيمان العارفين ويقينهم الذي يشهدون فيه الحق دون حجاب ، ومثلهم في ذلك كمثل من دخلوا داراً وفيها رجل فرأوه بأعينهم وهؤلاء هم العارفون حقاً .

وجملة القول هنا أن المعرفة اليقينية عند الغزالي إنما هي معرفة الصوفية التي تبنى على أساس من الذوق الروحي والكشف الإلهي ، وهي التي تقع في قلوب الأولياء بلا واسطة من حضرة الحق تعالي وهذا بدوره يؤدى لا محالة إلي السعادة فإنه يرى أن موضوع المعرفة الصوفية ذات الله تعالي وصفاته وأفعاله وهو المسمى موضوع لأسمي معرفة وهو ما يحقق السعادة وقد صور هذا في رسالته (كيمياء السعادة) وقد وفق الغزالي في اختيار هذا العنوان الذي عَبّر به

---

[1] د/ فيكتور باسيلى – المعرفة عند الغزالي صـــ٢١٧ ، ٢١٨

[2] الإحياء جـ ٣ / ١٥

تعبيراً صادقاً عن كيمياء السعادة الباطنية التي تقابل الكيمياء الظاهرية [إذ كما توجد الكيمياء الظاهرية في خزائن الملوك لا في خزائن العوام ، فكذلك كيمياء السعادة لا تكون إلا في خزائن الله تعالي ولا تلتمس إلا من حضرة النبوة ، وكل من طلبها من غير هذا السبيل فقد أخطأ السبيل) [١]

" المعرفة والمحبة "

لقد استطاع الغزالي أن يسمو بالمعرفة الصوفية لدرجة أن جعل منها نظرية ذوقية في المعرفة وطريقة روحية تؤدى إلي السعادة .

وقد ربط الغزالي بين المعرفة والحب وبيَّن العلاقة بينهما فهل يسبق الحب المعرفة ؟ أم هل تنشأ المعرفة عن الحب ؟

لقد أجمع الصوفية على أن حال المحبة في اصطلاح القوم ليست إلا [لعبد نظر بعينه إلي ما أنعم الله عليه به ، ونظر بقلبه إلي قرب الله تعالي منه وعنايته به وحفظه وكلاءته له فنظر بإيمان قلبه إلي ما سبق الله تعالي من العناية والهداية وقديم حب الله ، فأحب الله عز وجل] [٢] والمحبة بعد هذا النظر ما هي إلا درجه رفيعة ينالها السالك لمعرفة الله كاستحقاق لتقواه ، وقربه من الله تعالي ، وإذا كان ذلك كذلك فإن صاحب هذه الدرجة يستحق معرفة الله على سبيل المشاهدة أو المعاينة ، وكان النورى يرى أن من طبيعة المحبة أن ينال صاحبها معرفة الكشف يدلنا على ذلك قوله (المحبة هتك الأستار وكشف الأسرار) [٣] ولقد بلغت المحبة عند الصوفية مبلغاً عظيماً لدرجة أن بعضهم اعتبرها أصل جميع الأحوال إذ يقول (اليافعي : الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها ، ومن صحت محبته ، تحقق بسائر الأحوال ، من الفناء ، والبقاء ، والصحو ، والمحو ، وغير

---

(١) الغزالى – كيمياء السعادة صـــ٣، ٤ مع المنقذ من الضلال – مكتبه الجندي .

(٢) الطوسى : اللمع صـــ٨٦

(٣) الطوسى : اللمع صـــ٨٦

ذلك) [1] وهي بهذا كحال رفيع من أحوال السالكين تفضي بصاحبها إلى شهود. الحقيقة ، بل قد يطلع علي معاينه أمور في الغيب ، ما كان ليراها أو يشاهدها دون أن ينال محبة الله تعالي .

ولقد قرر الغزالي أنه لا يتصور حب إلا بعد معرفةٍ وإدراك (إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرف ، ولهذا لا يوصف الجماد بالحب إنما الحب خاصة من خواص الحي المدرك) [2] وأول ما ينبغي معرفته وتحقيقه ، هو أنه (لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه فإذا تحققت عند العبد أسباب المحبة وهذه الأسباب لا يتصور كما لها واجتماعها إلا في حق الله تعالي فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه تعالي) [3] . وقد أكد الغزالي علي أن المحبة ثمرة من ثمار المعرفة والمعرفة هي بذرها ونواتها ولا يتصور ثمر بغير بذر و نواة ، وإذا كانت المحبة ثمرة المعرفة فإنها (تنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوي بقوتها ، ولذلك قال الحسن البصري رحمة الله تعالي : من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه ؟) وكل شيء يحب بنسبته إلي الله كذلك وذلك لاستقرار المعرفة بأنه تبع لله فكلما كانت التبعية أكبر وأشد وأدوم كان الحب كذلك فإن الله تعالي هو (المستحق لأصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلا) والمعرفة تنشيء الطاعة والطاعة علي قدر المحبة والمحبة تورث النعيم وإن أعظم نعيم المحب إذا قدم علي محبوبه بعد طول شوقه إليه والناس متفاوتون في هذا النعيم علي اختلاف أقدارهم في المحبة والمحبة كما قلنا تبع للمعرفة فإذا تأصلت المعرفة وأثمرت المحبة يتحقق النعيم كما قلنا وهو علي قدر

---

[1] اليافعى : نشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية – بهامش جامع كرامات الأولياء – للنبهاني – طبعه دار الكتب العربية –القاهرة ١٣٢٩ ، صـــ٣٥٢

[2] الإحياء ٤/ ٢٥٤

[3] السابق صـــ٣٠٠

قوة المحبة فكلما (ازدادت المحبة ازدادت اللذة ، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالي في الدنيا وأصـــل الحـــب لا ينفك عنـــه مؤمن لأنه لا ينفك عن اصل المعرفة) [1].

والمحببة الكاملة لها سببان رئيسيان :ـــ

أولهما :- تخلية القلب عن غير الله تعالي فإذا طهر القلب من كل ما سوي الله تعالي وفرغ من غيره (اتسع لنزول معرفة الله وحبه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب) وهو ما أشار إليه الرسول علية الصلاة والسلام بقولة (الطهور شطر الإيمان) [2]

الثاني :- قوة معرفة الله تعالي واتساعها واستيلائها علي القلب وإنما ذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها) فإذا حدث ذلك بذرت بذور (المحبة والمعرفة) وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) [3] وقد أثر عن الشبلي قوله (علامة المعرفة المحبة ، لأن من عرفه أحبه) [4] وقال الجنيد (المعرفة طلوع الحق علي الأسرار ، بمواصلة لطائف الأنوار) [5] وفي تعريف الجنيد نري أن المحبة منحة إلهية ووهب من جناب العظمة حتى تتكشف للعارف المحب الأسرار انكشافاً لا يبقي معه جهالة بنور الحق الذي يمحق كل ظلمة تقف بين النفس وبارئها ، والملاحظ عند دراسة المقامات والأحوال عند الصوفية أنهم قد اختلفوا في المقامات والأحوال وبعضهم عدّ المحبة حالاً وبعضهم عدّها مقاماً ومهما يكن من أمر فإنهم مهما اختلفوا فإنهم مجمعون على أمر بعينه هو أن الغاية القصوى عندهم هي (التحقق بمحبة الله ومعرفته ومشاهدة جماله وجلاله وكماله

---

[1] الإحياء جـ٤ صـــــ٣١٦

[2] أخرجه مسلم من حديث أبى مالك عن الاشعرى .

[3] سورة إبراهيم : آيه : ٢٤ .

[4] السلمى – المقدمة – في التصوف صـــــ٣٧

[5] السلمى – السابق ص ٣٧ .

وآثار هذا كله في العوالم المختلفة) [1] وقد اختلط مقامي المحبة والمعرفة عند الصوفية وذلك عند تعريفهما وبيان حدودهما حتى أنهما لا ليتداخلان تداخلاً يصعب معه الفصل بينهما وقد عرَّف الحلاج حقيقة المحبة بقوله (حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك) وقال أبو يعقوب السوسى (لا تصح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلي رؤية المحبوب بفناء علم المحبة) [2] والذي يتدبر هذه التعريفات عند الصوفية والمؤلفين فيها ويحاول فهم مقاصدها ومحاورها وما ترمى إليه وما تدور حوله ، يجد أن ما سيطر عليها هو : فناء الإنسان عن نفسه ، وعن أوصافه وحظوظه وإنكار ذلك وإيثارة الله على سواه ، كل هذه شروط أساسية ينبغي أن يتحقق بها المحب لكي يكون محباً تصح محبته ويقال مثل هذا أيضاً عند التعريف بالمعرفة ويرى القشيري في رسالته أن العارف (بمقدار اجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عز وجل) [3] ولقد وفق الغزالي في تحليله للعلاقة بين الحب والمعرفة وأسبقية أيهما للآخر حتى سبق غيره فأضحى بذلك مسار دراسات شتى لمختلف نواحي علومه وأفكاره فقدم (تحليلاً لعلاقة الحب والمعرفة لعله ليس أقل وضوحاً ودقه مما يستطيع أن يقدم أي عالم من علماء النفس المحدثين) [4] وانتهي الغزالي في تحليل العلاقة بينهما إلي بيان أن المعرفة تسبق الحب وجعل الحب نتيجة المعرفة وهذا هو ما اتفق معه فيه علماء السلف من أصحاب المواجيد الذوقية أمثال ابن تميمة وابن القيم حيث يرى ابن القيم أن (صفات الله ، ونعوت كماله ، وحقائق أسمائه هي التي تجذب القلوب إلي محبته وطلب الوصول إليه ، لأن القلوب إنما تحب من تعرفه ، وتخافه ، وترجوه ، وتشتاق إليه ، وتلتذ بقربه ، وتطمئن إلي ذكره بحسب معرفتها ، فإذا ضرب دونها

---

[1] د/ محمد مصطفي حلمى / ابن الفارض والحب الإلهي صـــ٢٣٤ دار المعارف سنه ١٩٧١م مصر

[2] انظر الرساله القشيريه صـــ١٤٣ –١٤٨ تحقيق د/ عبد الحليم محمود .

[3] انظر هذه الأقوال وكثيراً غيرها في الرساله القشيريه صـــ١٤٠ – ١٤٣

[4] د/ محمد مصطفي حلمى – ابن الفارض والحب الإلهي صـــ٢٣٩

حجاب معرفة الصفات ، والإقرار بها . امتنع منها بعد ذلك ما هو مشروط بالمعرفة وملزوم لها ، إذ وجود الملزوم بدون لازمه والمشروط بدون شرطه ممتنع) [1] ومعنى هذا أن المعرفة متقدمة على الحب (وأن شرط الحب المعرفة ، وهذا التقديم منطقي وملائم لطبيعة كل من الحب والمعرفة : إذ لا يمكن أن نتصور أن إنساناً أحب إنساناً أو شيئاً دون أن يكون قد رآه أو سمع به على أقل تقدير ، والرؤية والسماع طريقان من طرق المعرفة ، وإن كانا أقل رتبة من المعرفة الحدسية التي هي عند الفلاسفة أتم وأكمل من المعرفة الحسية والاستدلالية ، وهاتان الأخيرتان أقل رتبة عند الصوفية من المعرفة بالبصيرة الباطنة) [2]

ما هو سبب تفاوت الناس في المحبة ؟

لقد أكد الغزالي على أن المحبة تزداد بزيادة المعرفة وذلك في كل شيء أما من كان طالباً للسعادة بلقاء الله تعالي فليترك الدنيا وراءه كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابي (ازهد في الدنيا يحبك الله) وعلى المرء الاستغراق التام بالتفكر والذكر الدائم فلعله بذلك يصل إلي حالة الرضوان من الله تعالي .

ولكن المؤمنين مع اتفاقهم في أصل محبتهم لله تعالي إلا أنهم يتفاوتون في مقدار هذه المحبة وذلك (لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالي إلا الصفات والأسماء) [3]

وقد حرص الغزالي على تقسيم الناس من حيث تفاوتهم في المعرفة والمحبة التابعة لها بحسب علومهم في الدين ، فقسمهم إلي أقسام ثلاثة :

---

[1] ابن القيم / مدارج السالكين جـ٣ صـــ٢٢٤

[2] د/ محمد مصطفي حلمى – ابن القارض صـــ٢٤١ السابق .

[3] الإحياء ٤/ ٣١٩

الأول : الضالون : وهم الذين تخيلوا في الذات الإلهية وكمالاتها معاني يتعالى عنها رب الأرباب .

الثاني : أهل السلامة أصحاب اليمين : وهؤلاء ربما لم يطلعوا على حقيقة الذات الإلهية ولم يتخيلوا لها معنى فاسداً بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث .

الثالث : وهم العارفون بالحقائق وهم المقربون وقد بين الله أقسام هؤلاء في قرآنه فقال " فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ " [1]

وبالجملة فإنه كلما ازداد المرء على أعاجيب صنع الله إطلاعاً ازداد به معرفة وله حباً واستدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وبهذا يتفاوت أهل المحبة في محبتهم لله تعالي والتفاوت في المحبة هو السبب في التفاوت في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالي " وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً "[2]

وفي النهاية يكمل الغزالي منظومة المحبة والمعرفة حيث أنهما متداخلتان ، فيرى أن الغاية والهدف الأسمى من المعرفة عامة هي الحرص على سلامة التوحيد ولذلك قد ارتبطت نظريته في المعرفة بنظريته في التوحيد (فالله وحده هو المعبود المتفرد الذي لا يقبل المعية بحال لأنها تستوجب المساواة في الرتبة ، وهذه المساواة نقصان من الكمال) [3] (وإذا كان الكمال من كيفيات الألوهية فإنه يصير من هذه الناحية موضوعاً للمحبة) [4] لأن معرفة الله تعالي هي أكمل المعارف وأشرف أنواع العلم فإنه إذا كان (كمال المعرفة هو الاعتراف بالعجز عن معرفة الله) [5] وهو ما أكده الصوفية من قبل أن العجز عن الإدراك إدراك

---

[1] سورة الواقعة (٨٨، ٨٩)

[2] سورة الإسراء (٢١)

[3] الإحياء ٤ / ٢٧١

[4] السابق ٤ / ٢٨٢

[5] السابق ٣ / ٢٤٤

فإن العارف سوف يسلك طريق المعرفة للوصول إلي حضرة الذات العلية فتتحقق السعادة بالقرب من الذات الإلهية ، ولا أعنى قرب الأماكن – حاشا لله – فالله لا تحويه الجهات ولا الأزمان ولا تحيط به الأفهام ، ولكن هذا القرب يتم بالمعرفة والتي تعتبر السعادة ثمرة من ثمارها ويستحيل أن يعرف الله تعالي بالحقيقة المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالي .

ومن الملاحظ أن المعرفة عند الغزالي وإن كان طريقها الكشف إلا أن قوامها الشرع والعقل معاً ، وقد وقف الغزالي عند حدود الدين وحفظ للوحي درجته وللأنبياء علومهم التي تعلو فوق كل علم أو تعلم بشرى أو معرفة صوفية كذلك (فإن استخدام العقل عند الغزالي في ميدان الشريعة راجع إلي أن كل تكليفه إنما هو بشرط العقل ، ثم إذا ترقي السالك من مقام الشريعة إلي مقام الحقيقة استخدم منهج الكشف أو الذوق ، فالكشف ثمرة الشريعة واستخدام العقل يكون في البداية) [1]

في النهاية يجب أن نؤكد علي أن الغزالي وإن كان قد اتخذ التصوف سلوكاً ومنهجاً فإنه لم يهمل العقل بل اعتمد عليه فهو وسيلة من أهم وسائل المعرفة ، ويري أن المعرفة اليقينية هي المعرفة الصوفية التي هي الكشف والمشاهدة ، وهي أرقي مناهج المعرفة عنده ، ولقد ترتب علي نظرية الغزالي في المعرفة نظريته في المحبة ونظريته في السعادة ، وبهذا فمن الممكن بحق أن نعتبر نظريته في المعرفة نظرية متكاملة إذا قورنت بما سبقه من أقوال فيها ، كما يمكن اعتبار نظريته تطوراً ملحوظاً في التصوف الإسلامي .

---

[1] الغزالي – فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة صـــــ٧٤